عصر سلاطين المماليك

المجلدان : الثالث والرابع

تأليف الأستاذ محمود رزق سليم
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
للأستاذ محمد رجب البيومى

يعتقد صديقى وأستاذى الجليل محمود رزق سليم أن العصر المملوكى لم يأخذ حقه من البحث العلمى الدقيق ، فهو حافل بالمؤلفات العلمية فى شتى المواضيع الثقافية ، ذاخر بأعلام اللغة والفقه والأدب والتاريخ الذين حفظوا التراث الإسلامى بعد سقوط بغداد فى يد التتار ، ملئ بالأحداث السياسية والتاريخية التى كتبت مستقبل مصر والإسلام ، وحولت اتجاه الشرق العربى إلى مآمن يعصم من الكوارث والخطوب ، ومع ما لهذا العصر من الأهمية الخطيرة فأكثر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين يقابلونه بوجه عابس ، ويواجهونه بنقد حاد

وقد كرس الأستاذ المؤلف جهوده الحافلة للدفاع عن هذا العصر وتسجيل مفاخره العلمية والسياسية ، وتعداد ما أنتج للأدب والعلم من ثروات غالية يعتز بها تراثنا النفيس ، ولم يقصر المؤلف جهوده فى هذه الناحية على ميدان واحد ، بل تشعبت به الميادين ، وانفسحت أمامه الطرق ، ووجد لديه من الموهبة والكفاءة والمثابرة ما حفزه إلى ارتياد الطرق المتشعبة ، والصيال فى الميادين المختلفة ، مهما أرهقه السير والتجوال ، وأضناه التجمع والوثوب

فهو فى كلية اللغة العربية يوجه تلاميذه إلى كنوز هذا العصر ، ويعرض أمامهم أساطينه وأعلامه محللا ناقدا ، ومؤرخا مستوعبا ، ويفسح مجال المقارنة بينه وبين العصر العباسى والأندلسى دون أن يتعصب لناحية أو يتشيع إلى فريق

وهو فى مجلة الرسالة الغراء يطالع قراءها الأفاضل بطرائف منتخبة عن العصر المملوكى ، فيجلو صفحات رائعة عن سماته البارزة فى النقد والحرب والفكاهة ، ويبحث عن خصائصه فى التورية والجناس والزجل والتشطير ، ويدرس جوانب هامة فى حيوات أعلامه البارزين

وهو فى جامعة فؤاد يقدم رسالة علمية عن النثر الفنى فى العصر المملوكى ، فتجلو عناصره ومقوماته ، ويزن آثاره بميزان النقد الحديث ، ويعقد صلة واضحة بين الطريف والتليد

وهو فى ميدان القصص ، يخط عدة أقاصيص تاريخية ينتزع أبطالها وحوادثها من هذا العصر الملئ ، ويصوغها للقراء فى أسلوب طلى ، وحوار جميل ، وقد وقف — على بعضها — قراء الرسالة ، فطالعوا ما كتبه الأستاذ عن قانصوه الغورى السلطان الشهيد

ثم هو أخيرا فى ميدان التأليف العلمى يكتب ثمانية مجلدات ضخمة تكون موسوعة شاملة لأهم ما حفظه التاريخ عن هذا العصر العجيب ؛ وإذا كان المؤلف قد رجع فى مصادره إلى مئات المخطوطات العتيقة ، يكشف عنها فى خزائنها المكنونة ، وينبش فى أضابيرها البالية باحثا منقبا ، ليؤيد رأيه بالدليل الملموس ، والحجة المعترف بها ، حتى سود آلاف الصفحات ، وأرهق جسمه وعقله وعينيه ... أقول إذا كان المؤلف قد فعل ذلك فإنه جدير بالإعجاب والتقدير ، ولن يقدر مجهوده حق قدره غير من كتب له أن يقوم بدوره الشاق فى الرصد والتسجيل

ويذكر قراء الرسالة أنى كتبت بالعدد « ٧٨٨ » كلمة عن المجلدين الأول والثانى من هذه الموسوعة الضخمة ، وها أنذا أكتب كلمتى الثانية عن المجلدين الثالث والرابع بمناسبة ظهورهما الآن ، فقد آثرت أن أتابع هذه الحلقة المباركة ، لأعلم مالم أكن أعلمه عن مصر العزيزة ، وتاريخها النفيس ، ولن ألخص للقراء مواضيع الكتاب ومحتوياته فى هذا العرض السريع ، فذلك متيسر من يمر بالفهرس مرورا خاطفا ، ولكنى أتجه إلى نقطة هامة ، سبق أن أشرت إليها فى مقالى السالف ، وبقيت تتطلب المزيد من الإيضاح والتعليق

لقد عزم المؤلف أن يجعل من المجلدات الثمانية موسوعة حافلة بالمهم والجليل من أنباء العصر المملوكى ، فسود مئات الصفحات فى تسجيل حوادث وأنباء لا يحتاج إليها القارئ فى شئ فهو يكتب قوائم حافلة بأخبار الفيضان وأرقام الصعود والهبوط

ويتحدث عمن زار مصر من الأضياف ويسرد فهارس متتالية للكتب المختلفة في الفقه والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والمنطق مما أخرجه علماء العصر المملوكي في ميدان التأليف ، ولم يسمع بأكثره لتلاشيه في رحاب السنين ، كما يتتبع كل خليفة أو مملوك أو وزير أو عالم أو قاض ورد ذكره في الموسوعات الحافلة كالضوء اللامع أو النجوم الزاهرة أو حسن المحاضرة أو السلوك أو الشذرات أو التذكرة أو بدائع الزهور أو الدرر الكامنة فيخصه بترجمة موجزة مما كان سببا في إرهاق الأستاذ بلا مبرر ، وقد خالفت المؤلف في هذا الرصد العجيب فقلت في مقالي السالف بمجلة الرسالة — العدد ٧٨٨ ما نصه :

« على أني أخالف الأستاذ في ناحية هامة تشيع في مؤلفه ، فقد حرص كل الحرص ، على أن يترجم لكل من ولي السلطنة أو ناب عنها ، وكذلك من تحدث عنهم فيما بعد من القضاة والخلفاء ، وفي هؤلاء جميعا من لا يستحق أن يكتب عنه سطر واحد ، حيث كان فردا عاديا لم يخلف أثرا هاما أو تحدث في عهده من المفاجآت ما يدعو إلى الحديث عن زمن ولادته أو مدة حياته أو آونة وفاته ، وإنما ولي وعزل ، وكأنه لم يولد ، فكيف نتعب أنفسنا في تراجم أصنام آدمية ، قذف بها الزمن في قرار سحيق »

أقول ، لقد سبق أن قلت ذلك على صفحات الرسالة ، واعتقدت أن المؤلف الفاضل قد اقتنع برأيي المتواضع ، ولكن ظهور المجلدين الثالث والرابع ، قد أثبت نقيض ذلك ، حيث حشد الأستاذ فيهما تراجم عديدة لنكرات مهملة تعب عنها المؤلف في شتى الموسوعات ! وحسبك أن المجلد الرابع قد ضاع ٩٠٪ منه ، في هذه التراجم العجيبة ، حيث شغلت (٢٤٧) صفحة طويلة مزودة بالمراجع والأسانيد ، وبلغ عدد من ترجم لهم نحو الخمسمائة والخمسين من العلماء ، وكان الأجدر أن يقصر الأستاذ تراجمه على النابهين الأفذاذ من بين هؤلاء ، وهم لا يتجاوزون المائة على أكثر تقدير !

ولعل المؤلف قد شعر أنه بذل مجهودا كبيرا دون حاجة ملحة إليه فعمد إلى تبرير صنيعه ، وقال في مقدمة المجلد الرابع — وكأنه يرد علي —

« وتستغرق التراجم الموجزة لمشاهير العصر جزءا غير قليل من صفحات الكتاب ، وهي في الحق ضئيلة بالنسبة إلى كثرة عددهم ، وواسع فضلهم ، ونظرة يسيرة إلى كتب أعلام هذا العصر وطبقاتهم تدل على صواب ما نقول ، وقد بدت فيها عناية مؤلفيها بأبناء عصرهم وأنبائهم ، وفي الحق أننا وجدنا فيها خضما واسعا بعيد الغور ، فلم يكن لنا حياله إلا حسن الالتقاط والنظم ، على أنها مرحلة في هذا الكتاب لا بد من اجتيازها ، ولا سيما أن المؤلفات التي أشرنا إليها جمت فأوعت ، ونوهت بالمشاهير وغير المشاهير »

فالأستاذ محمود رزق يقتدي بكتاب العصر المملوكي في حشد التراجم من كل صوب ، وقد نسي أنه يكتب مجلداته في القرن الرابع عشر ، لا في المائة الثامنة ، أو القرن التاسع ، ولكل عصر خصائصه في التأليف واتجاهه في البحث ، فقد كان السخاوي وابن إياس والمقريزي يؤمون الجهات المختلفة ، ليسجلوا تراجم من يقابلونهم أو يسمعون عنهم من علماء المساجد ، وأساتذة المدارس ، ومشايخ الزوايا ، وقضاة المحاكم ، ثم يسودون صحائفهم المديدة بما يجمع الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والسمين والغث ، والتافه والجليل ، وقد عفى الزمن على هذه الطريقة البالية ، وأصبحنا نختار ما نكتب عن دقة وتمحيص ، فإذا أراد مؤرخ معاصر أن يسجل هذه الحركة العلمية في وقتنا هذا ، فليس عليه أن يتتبع التراجم في شتى المظان ثم يرصدها لقارئه في إيجاز واقتضاب ، ولكن عليه أن يدرسها في مطالعته الخاصة ، ثم يأخذ منها ظواهر معينة وأدلة ثابتة يقيم عليها بحثه التاريخي الكلي ، ويجعل منها أسسا متينة لآرائه وقضاياه ، وما ينتهي إليه من نتائج وأحكام

وهل يستسيغ الأستاذ الفاضل — إذا أراد أن يكتب عن عصرنا الحديث مثلا — أن يترجم لجميع من يقع على مؤلفاتهم من أساتذة الكليات ومدرسي المعاهد والمدارس ، مع أنهم جميعا يتسمون بالعلم والفضل والإنتاج ، أو أنه يختص أولي الأثر البارز في توجيه الحركة العلمية والأدبية بالنقد والتمحيص ؟ أكبر الظن أنه يتجه الوجهة الثانية دون نزاع ، ولا يقبل أن يقلد السخاوي والمقريزي والسبكي وابن حجر فيما صنعوه منذ عدة قرون !! ولعل اهتمامه الكبير بأن يجعل كتابه موسوعة حافلة ذات كتب

وأجزاء ، قد دفعه إلى هذا الرصد والاستقصاء ، وهو بعد يعلم مناهج البحث التاريخي وما طرأ عليه في العصر الحديث من ضوابط وقيود ، ولن يحتاج إلى من ينبهه إلى ذلك ، وفي الأبواب العامة التي يفتتح بها المواضيع الرئيسية لكتابه ، ما يدل على إحاطته الشاملة بالتيار الفكري الحديث ...

وقد خص أستاذنا الفاضل طائفة من أعلام الفقهاء بتراجم تحليلية مسهبة تحتل مكانا فسيحا من المجلد الثالث ، وقد صاغها في نسق علمي دقيق ، فهو يذكر المعالم البارزة في حياة من يترجم له ، ويعرض شيوخه وتلاميذه وآراءه الفكرية والمذهبية ، ثم يعنى بتحليل مؤلفاته ، وعرضها عرضا يكشف عن ذخائرها الدفينة ، ومكامنها المستترة ، وبذلك استطاع أن يحلل طائفة من الكتب العلمية التي تعتبر بحق مصادر مستوفاة في الفقه واللغة والأدب والتاريخ ، ولم يكتف بذلك بل أفسح المجال في المجلد الرابع لعرض مؤلفات أخرى لا تنقص عن سابقتها في شيء كوفيات الأعيان ، وعجائب المقدور ، والضوء اللامع ، وبدائع الزهور ، وكانت هذه الموسوعات العلمية في حاجة ماسة إلى من يتحدث عنها بإسهاب فيبين ما اشتملت عليه من معارف جزيلة النفع ، ويكشف عما اهتز في غصونها من ثمار يانعة ، وغرد على أفنانها من طيور صادحة ، ولعل المؤلف بذلك يلفت الأذهان إلى ضرورة الاعتناء بإحياء هذه الكتب ، وإخراجها للناس من جديد في نسق علمي يعتمد على المراجعة والتحقيق

ومع أن الكاتب الجليل قد نقد بعض هذه المؤلفات نقدا علميا سليما ونبه إلى ما تجمعه من محاسن ونقائص ، إلا أننا نلاحظ أنه يغمض العين عن بعض المآخذ الهامة ، بل ربما تلمس لها من التصويب ما يتعذر التسليم به ، وقد دفعه إلى ذلك هيامه بالعصر المملوكي ، وموقفه منه موقف المدافع الذائد ، وهو يصرح في مقدمة المجلد الثالث بأن النقد ليس غرضا أصيلا في تحليله وعرضه ، وإنما يرسم صورة هادئة خالية من صخب النقد والحد منه ، كما يقول إنه يأمل أن يجد للنقد الصريح مجالا غير هذا المجال ، وأنا لا أوافقه على هذا المسلك ، فالفكرة العلمية لا تكون كاملة مستوفاة إلا إذا أخذت دورها الكامل في التمحيص الشامل ، والنقد الدقيق

وقد لاحظت أن الأستاذ قد كتب تراجم موجزة لبعض العلماء ثم أعادها بإسهاب مطيل ، وهذا لا يكون إطلاقا في كتاب يحمل اسما واحدا ، وكان الأجدر أن يترك المؤلف تراجمه الموجزة ويحيل القارئ إلى ما كتبه أو سيكتبه من التراجم المطنبة ذات العرض الشامل الفسيح ، وهناك أمر ثان يتعلق بهذه التراجم الطويلة ، فقد لاحظنا أن المؤلف قد اختار من الفقهاء عددا كبيرا كالنووي والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وزكريا الأنصاري ، ومع هذه الحظوة البالغة بالفقهاء فقد أغفل النحاة واللغويين فلم يكتب ترجمة مسهبة لرجل كابن منظور أو ابن هشام أو ابن مالك ، وكان الأولى في التراجم التفصيلية أن توزع وفق العلوم المختلفة ، فلا يطغى الفقهاء والمؤرخون على اللغويين والنحاة مثلا ، فيكون في هذا التنويع تاريخ ضمني لجانب مختلف من العلوم ، ولعل الأستاذ قد حاول ذلك ، فتزاحمت لديه الشخصيات ، وتقاتلت أمامه الأسماء ، وصدق عليه قول القائل

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

محمد رجب البيومي

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع في ثلاث مجلدات في ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد